



تنبيه ورجاء:

هذا حديث من أربع حلقات، أتمنى ممّن قرأ واحدة منها أن يقرأ الحلقات الأخرى حتى لا يخرج بفكرة ناقصة أو يفهم المسألة على غير وجهها، ولو لأن أطيل لجمعتها كلها في مقالة واحدة.

المقالة السابقة أدخلتني في حقل الألغام؛ ساقتنى إلى المنطقة المحرّمة التي يتحامها السياسيون ويتخاشاها الكتاب، فتركوها لاثنين من الهواة:

أحدهما اقترح التفريط في الدين لأنّه يتعارض - برأيه - مع الشراكة في الوطن، والثاني رفض "المواطنة" من أساسها لأنّها تتعارض - برأيه - مع الدين.

لا أدرى لماذا ينسحب المفكرون من الميدان ويهارون الحديث الصريح في هذا الأمر الحساس، ولا أعلم في أي شيء يتعارض الانتماء إلى الدين والانتماء إلى الوطن حتى يتحتم على المرء إجراء القرعة بينهما! تعالوا نفكك هذا الموضوع المعقد إلى مكوناته البسيطة.

\* \* \*

أكثر قراء هذه المقالة لهم وظائف وأعمال، فلنتخيل موقعاً من موقع الأعمال، ول يكن مستشفى من المستشفيات.

هذا المستشفى يعمل فيه جيش من الأطباء والطبيبات والممرضين والممرضات، وهم يشتركون في المسؤولية عن نجاحه فيلتزمون بالتعاون المخلص ويتبادلون المودة والاحترام.

ولاشك أنهم تربطهم رابطة من نوع ما، انتماء إلى المستشفى الذي يعملون فيه ويحملون اسمه ويخترون به ويحرصون على سمعته، حتى لو تعددت ألسنتهم وتنوعت طوائفهم ودياناتهم.

لكن هل تبلغ تلك الرابطة بينهم من القوة أن يصبح الواحدُ منهم أقرباً إلى الآخر من أمه وأبيه وأخته وأخيه وزوجته وبنيه؟ لا يمكن.

مهما تقارب زملاء العمل ومهما اشترکوا في حمل الهم الواحد والسعى إلى الهدف الواحد فإن علاقات الدم والقُرْبَى أوثق وأبقى.

هذا مثال الانتماء إلى الدين والانتماء إلى الوطن.

أبناء الدين الواحد كلهم إخوة فيه، وأبناء الوطن في الوطن شركاء. المسلم والمسيحي والدرزي والإسماعيلي شركاء في الوطن السوري، يجمعهم انتماء واحد وهم واحد وهدف واحد، ولكن لا تخيل أن يكون المسلم السوري أقرب إلى الدرزي السوري من الدرزي اللبناني، ولا أستطيع أن أشعر بأن المسيحي السوري أقرب إلى من المسلم الهندي أو الملاوي.

يجمع بيننا الود والاحترام والتعاون والانتماء إلى الوطن الواحد، ولكن رابطة الدين تبقى أقوى من رابطة الوطن مهما بلغ حبنا للوطن وانتماؤنا إليه؛ هذه حقيقة من حقائق الحياة، ومن أنكرها فقد دفن رأسه في الرمال.

لقد أراد حزب البعث الذي سطا على سوريا واستعبد أهلها خمسين سنة، أراد أن يذيب الرابطة الدينية وأن يصهر الناس في رابطة قومية عرقية عربية، ولكن الثورة السورية المباركة أثبتت أن ما صنعته البعث في نصف قرن لم يكن غير قشرة رقيقة، طلاء مزيف لم يلبث أن جف ثم تفتت ونثرته الريح.

تسع وأربعون سنة مضت والناس أتى التفتوا قرروا شعار البعث: "أمة عربية واحدة ذات رسالة خالدة"، ثلاثة أجيال نشأت وهي ترددت في المدارس كل صباح، ثم جاءت الثورة فكشفت الغطاء.

نادي الثوار "يا الله" فتجاوיבت بالنداء بلاد الإسلام ووقف المسلمون مع إخوانهم المستضعفين وأمدواهم بالمال والدعاء، ونادي العبيد "يا علي" فتدفق المدد من إيران ومن شيعة لبنان واليمن والعراق. لقد انتصرت الرابطة الدينية على رابطة العرق والوطن.

نعم، إن العلاقة الأعلى هي رابطة الدين، ولكنها ليست رابطة عنصرية عمياء، فالذى يدعى الإسلام ثم يخالف سلوكه دعواه لا يستحق أخوة الإسلام، لا يستحقها الفسقة والمنافقون والبائرون الدين بالدين ولو كانوا في الظاهر من المسلمين.

عندما يصطف مع الباطل من يدعى الإسلام ويصطف مع الحق من ليس مسلماً أصلاً فإن الثاني أقرب إلى من الأول ولو زعم الأول أنه حجة الإسلام وإمام المسلمين. هذا البوطي يدعى لنفسه ذلك الفضل ويدعوه له أولياؤه ومربيوه، وهو يصلى

ويصوم ويذمّع أنه مسلم ثم يحارب الله ورسوله وأولياءه، فأي رابطة بقيت بيني وبينه بعد ذلك؟  
هذا الرجل وأمثاله من الذين وقفوا مع الطاغية وأعانوه على الظفيان ليسوا منا ولسنا منهم، الدرزي الشريف فيصل القاسم  
والعلوي الشريف حبيب صالح أقرب إلينا منهم وأحب إلى قلوبنا، وعملهما أصلح مما يفعلون.

\* \* \*

إن "الوحدة الوطنية" تقتضي الشراكة في بناء الوطن وحفظ الوطن، وفي هذه المهمة الجليلة يتتساوى الجميع، المسلمين  
والمسحيون والدروز والإسماعيليون، ويتساوى فيها العرب والأكراد وسائر القوميات والطوائف.

لكن هذا لا يعني أن تفقد كل جماعة من تلك الجماعات هويتها وأن تتخلى عن خصائصها وأن تذوب في غيرها.

من منكم زار الولايات المتحدة؟

إنها بلاد الأجناس والأعراق والطوائف والديانات، وإنك لتجد كل جماعة منها ما زالت محتفظة بخصائصها الثقافية واللغوية  
والدينية ولو مضى على انتقالها إلى العالم الجديد عشرة أجيال، فالإيطاليون يتحدثون لغتهم ولهم مجتمعهم الصغير، ومثله  
للسينيين واليابانيين وغيرهم، وللકاثوليك كنائسهم وللأرثوذوكس كنائسهم ولليهود معابدهم وللهندوس معابدهم، والمساجد  
للمسلمين.

لم يقل أحد من الأميركيين إن عليه التخلي عن هويته والذوبان في هويات الآخرين ليثبت انتفاءه للوطن الكبير، فلماذا تولد  
بيتنا هذه الدعوات الغربية؟

لماذا اتخذ بعض الناس شعاراً لهم هلالاً يعانق الصليب؟

هذا التصرف سخيف تماماً ولا معنى له، فإذا كان المقصود أن كل أبناء الوطن يتعاونون من أجل خير الوطن فلماذا لم  
يضعوا مع الصليب والهلال نجمة سداسية؟ أليس في سوريا يهود؟ وماذا عن العلويين والشيعة والإسماعيليين والدروز؟  
أنا أشّبه الوطن (المجتمع الكبير) بالأسرة (المجتمع الصغير).  
يمكن أن تنشأ الأسرة من زوج مسلم وزوجة مسيحية.  
أليس هذا جائزاً في الإسلام؟

ورغم اختلاف الزوجين في الدين إلا أنهما يتفقان على حماية ورعاية مصالح الأسرة والأولاد، ويربط بينهما رباط من المودة  
والرحمة والتفاهم والتعاون، لكنهما إذا خرجا من البيت وذهبا إلى العبادة فإن الرجل يتوجه إلى الجامع وتتوجه زوجته إلى  
الكنيسة. يبقى المسلم مسلماً والمسيحي مسيحياً رغم اشتراكهما في مشروع بناء الوطن، أما إلغاء هوية المسلم وهوية  
المسيحي ودمجهما معاً فإنه سخف كبير لا يجوز ولا يرضاه المسيحيون فضلاً عن المسلمين.

\* \* \*

قلت إن "الوحدة الوطنية" هي الشراكة في بناء الوطن وحفظ الوطن وإنها مهمة جليلة يتتساوى فيها الجميع، ولكن لا بد من  
إضافة ضابط مهم يحافظ على الهوية العامة للدولة السورية. وما هذه الهوية؟

سؤال أولاً عن هوية سوريا اللغوية: هل تقبلون أن تكون سوريا بلا هوية لغوية؟

أم تقولون إنها متعددة الهويات:

عربية وكردية وكلDaniّة وآشورية وسريانية وعبرية؟

حتى الآن لم يتجرأ أحد على القبح في الهوية اللغوية، فإن الإجماع منعقد - باستثناء الأحزاب الكردية القومية - على هوية  
سوريا العربية، مع الاحترام المطلق والاعتراف الكامل بحقوق الأقليات اللغوية والثقافية. لماذا لا يجد بعض الناس غضاضة  
في تحديد الهوية اللغوية ثم يجدونها في تحديد الهوية الدينية؟ لماذا لا يكونون منسجمين مع أنفسهم ويعترفون بالهوية  
الإسلامية لسوريا، مع الاحترام المطلق والاعتراف الكامل بحقوق الأقليات الدينية (المسيحيين واليهود) والطائفية (الدروز)

إن سوريا دولة عربية مسلمة، فهل يصح أن يمثلها ويلي أعلى المناصب في إدارتها من لا يتحدث اللسان العربي؟

لا ينسجم هذا مع الهوية العربية ولا يصح، وأيضاً لا ينسجم مع الهوية الدينية ولا يصح أن يرأسها من ليس مسلماً، وهذا هو الضابط الذي لا بد من إضافته إلى عموم وصفنا للمساواة في شراكة الوطن.

إن غيرنا من الأمم يشاركونا في هذا الأمر بالاتفاق الضمني كما في أميركا، أو بالنص القانوني الدستوري كما في أكثر الدول الأوروبية، وهو أمر أثبته الأستاذ فيصل القاسم في مقالة قيمة مُنصفة نشرها قبل سبعة عشر شهراً بعنوان “أيتها الأقليات، لا تتفق في وجه الثورات”， وقال فيها: “رغم علمانيتها المعلنة فإن دساتير الدول الغربية تنص على أن يكون الرئيس أو الملك من طائفة الأكثريّة”， ثم أوضح بالتفصيل كيف نصّت دساتير عدّ كبير من الجمهوريات والممالك الأوروبية على هذا الشرط عليناً وبلا مواربة.

فإذا كانت دساتير تلك الدول وقوانينها تمنع من لا ينتمي إلى ملتها من تولي أمرها فإن دستورنا - الذي هو ديننا - يمنع ذلك أيضاً،

فتبقى الولاية الكبرى في الدولة ووزارات التفويض حكراً على المسلمين ويشاركونهم الآخرون في وزارات التنفيذ (كما صرّح بذلك الماوريدي في الأحكام السلطانية وغيرها)، وينسحب الحكم على كل منصب يتبع لصاحبه تغيير حاضر البلاد ومستقبلها.

ولا عيب في هذا القيد ولا يحرجنا التصريح به، فإن ماضينا المشرق يقول إن تولي الأكثريّة المسلمة للمناصب العليا في الدولة لم ينقص من حقوق الأقليات شيئاً، وعلّمتنا التجارب الفاسية أن التهاون والتفرط في هذا الأمر ي sisir يتربّ عليه الثمن الخطير الكبير، ولقد ضاعت سوريا ودفعنا مئة ألف شهيد لاسترجاعها لأننا أسنّنا منصب شؤون الضباط في الجيش إلى ضابط علوي قبل نصف قرن، وأوشكت دولة خليجية صغيرة أن تضيع من قريب لأن شيعةً من أولياء إيران سيطروا فيها على إدارات الاتّباع والتّعيين في وزارَة الصحة والتعليم.

\* \* \*

بقيت كلمة أخيرة:

إن “الوحدة الوطنية” هي الشراكة في بناء الوطن وحفظ الوطن، وهي مهمة نبيلة جليلة يشترك فيها أهل الوطن كلهم ضمن رابطة من الود والاحترام ووحدة الهدف والمصير، وهذا العموم يدخل فيه كل من عاش على الأرض السورية - على اختلاف انتساباتهم وأديانهم وطوائفهم - باستثناء العلويين؛ فإنهم قد أتيحت لهم الفرصة ليثبتوا أنهم شركاء في الوطن، فرصة طويلة بطول الكابوس الطويل الثقيل الذي سرّبل سوريا بالظلم والظلم، فأثبتوا أنهم شركاء فاشلون، بل أثبتوا أنهم معذبون ومحطّلون، والليوم أثبتوا أنهم قتلة و مجرمون.

فمن أي شراكة تبحثون معهم يا أصحاب مشاريع التعايش والمصالحة الوطنية؟ لا، لن يكون العلويون شركاء متساوين في الوطن السوري وفي سوريا رجال.

(وللحديث بقية فاقرؤوها)

